دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	الآثار في الكتاب والسنة
المصدر:	مجلة دراسات إسلامية
الناشر:	جامعة الخرطوم - كلية الاداب - قسم الدراسات الإسلامية
المؤلف الرئيسي:	حسن، الهادي أحمد محمد
المجلد/العدد:	ع3
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	2011
الصفحات:	69 - 108
رقم MD:	607609
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
اللغة:	Arabic
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	القرآن الكريم ، الأحاديث النبوية ، الآثار
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/607609

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

دراسات إسلامية

مجلة علمية سنوية محكمة

العدد الثالث / 1432 هـ 2011 م

الآثار في الكتاب والسنة

د. الهادي أحمد محمد حسن

أستاذ مشارك – كلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة القضارف

يصدرها قسم الدراسات الإسلامية – كلية الآداب – جامعة الخرطوم – قسم الثقافة الإسلامية بإدارة مطلوبات جامعة الخرطوم

مستخلص البحث:

يتعلق هذا المقال بموقف الإسلام تجاه المواقع الأثرية للأمم السابقة التي سبقت ظهور الإسلام. ويحاول المقال أن يقسم هذه الأمم إلى ثلاث فئات رئيسية. إن الاهتمام الأساسي لهذا المقال يكمن في محاولة توضيحه موقف الإسلام من زيارة المواقع التي سكنتها الأمم السابقة خاصة تلك الأمم التي تعرضت لعقوبات من الله تعالى.

Abstract

This article deals with the trend of Islamic Law towards the archeological sites of the ancient nations of the pre - Islamic periods. It tries to classify those nations into three main categories. The main concern of the article is to explain the attitude of Islam towards visiting the ancient sites of those nations, specially those who were inflicted by the chastisement of God.

مقدمة:

الحمد لله رب العالمين، الحمد لله عدد أوراق الشجر، وعدد حبات المطر، وعدد ما تفتح من زهر، وعدد ما خرج من ثمر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، ورحمة للعالمين. صلى عليك الله يا سيدي يا رسول الله ما طلع القمر، وما حركت الريح أوراق الشجر صلاة وسلامًا دائمين ما دامت السموات والأرض يكونان أمانًا لي ولمن قرأ هذا البحث من النار وعلى آلك وصحبك ومن تبعك بإحسان إلى يوم الدين، وبعد.

فإنه يزداد الاهتمام بالآثار بمختلف أشكالها وأنواعها يومًا بعد يوم لأسباب مختلفة، ولأهداف متباينة، حتى إن بعض الدول ترصد الأموال الطائلة والكفاءات البشرية الكثيرة للمحافظة على المواقع الأثرية فيها ولصيانتها وإبقائها قائمة إلى أطول مدة ممكنة، لأن هذه الآثار تدر على هذه الدول دخولات هائلة من جيوب المتفرجين الذين يأتون زرافات ووحدانا من داخل الحدود ومن خارجها برًا وبحرًا وجوًا، فأصبحت الآثار بذلك مصدرًا اقتصاديًا مهمًا.

والناس الذين يأتون لمشاهدة هذه الآثار يقضون أوقاتًا طيبة فيها يسيرون في طرقاتها القديمة ويدخلون مبانيها العتيقة، ويأخذون الصور التذكارية هنا وهنالك، وبعضهم يكتب مذكراته عنها، ثم يعودون مسرورين يتحدثون عن عظمة الأبنية وعن اتساع الدور وقليلون منهم يسألون أين أصحابها؟ وماذا فعل ساكنوها؟ وكيف بنوا هذه القلاع؟ ولماذا حفروا هذه الكهوف؟ وما الغاية من وراء كل ذلك؟ قد تختلف الإجابات بين الناس على هذه الأسئلة، لكن حقيقة أن ناسًا كانوا هنا وأنهم جميعًا ذهبوا وماتوا لا يكاد يختلف عليها اثنان، هذه الحقيقة التي استوقفت فرعون الطاغية المتأله الجبار حين سأل موسى عليه السلام قائلًا: {فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى} [طه: 51].

قال موسى: { قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى} [طه: 52].

ولقد جاء في القرآن الكريم ذكر الآثار في مواضع مختلفة وفي سور شتى لإمعان النظر والفكر فيها، حيث دلت الآيات القرآنية الكثيرة صراحة على ذلك مثيرة في نفس المسلم حفظ التوجه إلى هذه الآثار، للإطلاع على ما فيها، وتذكر ساكنيها، والاعتبار بالمآل الذي آلت إليه حالهم والمصير الذي صار إليه أولئك الراحلون والذي ينتظر لا محالة هؤلاء القادمين لتشكك في قلب ووجدان المسلم القناعة عن حقيقة هذه الحياة وغايتها.

وهذا التوجيه القرآني كان دافعي للوقوف على مراد الشارع من ذكر الآثار والذي أثار في نفسي كثرة سؤال الناس عن هذا الموضوع وخصوصًا زيارة أراضي العذاب منها. كالبحر الميت في الأردن وحجر ثمود في السعودية مثلًا.

وبعد البحث في الكتب القديمة والحديثة والسؤال عن هذا الموضوع تبين لي – بحسب ما وصلت إليه – أن هذا الموضوع لم يطرق بعد. ولقد هداني الله تعالى إلى البحث فيه وكان عندي أكثر من هدف من ورائه وتتلخص فيما يأتي:

أولا: البحث في أحوال هذه الأمم الذين سكنوا هذه الآثار.

ثانيًا: معرفة علاقة الشريعة بالآثار.

ثالثًا: الوقوف على مراد الشارع من توظيف الشريعة للآثار.

رابعًا: معرفة حكم زيارة الآثار من منظور شرعي.

خامسًا: ربط زيارة الآثار بواقع الناس اليوم حتى تتحقق المقاصد الشرعية من آثار الأقوام السابقة.

معنى الآثار

أولا المعنى اللغوي:

قال ابن فارس تحت باب الهمزة والثاء وما يثلثهما:

الهمزة والثاء والراء له ثلاثة أصول: كقديم الشيء وذكر الشيء ورسم الشيء الباقي.

وقال نقلًا عن الخليل: "الأثر بقية ما يري من كل شيء وما يري بعد أن تبقي فيه علقه".[1]

وقال الراغب: "أثر الشيء حصول ما يدل على وجوده يقال: أثرا، أثر والجمع الآثار ويقال للطريق المستدل به على من تقدم: آثار"[2].

وقال الفيروز أبادي: "الأثر محركة بقية الشيء".[3]

وقال ابن منظور: "الأثر بقية الشيء وخرجت في أثره أي بعده والأثر بالتحريك ما بقي من رسم الشيء والأثيرة من الدواب عظيمة الأثر في الأرض بخفها أو حافرها".[4]

وقال إبراهيم مصطفي وآخرون: "الأثر العلاقة وبقية الشيء. وجاء في أثره أي في عقبه والأثر ما خلفه السابقون، والخبر المروي والسنة الباقية"[5].

ونلخص إلى أن معنى الآثار لغة: بقية الشيء وحصول ما يدل على من تقدم.

ثانيا المعنى الاصطلاحي:

جاءت كلمة أثر وجمعها آثار في الاصطلاح الشرعي لتدل على نفس المعنى اللغوي ومن ذلك قوله تعالى: { ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِرُسُلِنَا} [الحديد: 27].

([1]) أحمد بن فارس بن زكريا الرازي. معجم مقاييس اللغة الجزء الأول ص35 دار الكتب العلمية الطبعة الأولى1999 بيروت لبنان.

([2]) الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن. الجزء الأول. ص19 دار المعرفة الطبعة الأولى.1998بيروت لبنان.

([3]) محمد بن يعقوب الفيروز ابادي. القاموس المحيط. الجزء الأول. ص362. دار الفكر1983 بيروت لبنان.

([4]) محمد بن عبد الكريم المعروف بابن منظور. لسان العرب. المجلد الأول ص69إحياء التراث العربي ومؤسسة التاريخ العربي. الطبعة الثانية1993 بيروت لبنان.

([5]) إبراهيم مصطفي وآخرون. المعجم الوسيط الجزء الأول ص5 المكتبة العلمية. طهران.

وقوله تعالى: { هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي} [طه: 84].

وفي الحديث الشريف: قوله صلى الله عليه وسلم: "من سره أن يبسط له في رزقه، وينسأ له في أثره، فليصل رحمه"[6].

قال ابن منظور بعد هذا الحديث: الأثر: "الأجل وسمي به لأنه يتبع العمر وأصله من أثر مشيه في الأرض، فإن مات لا يبقي له أثر ولا يري لأقدامه في الأرض أثر".[7]

ووردت كلمة أثر كذلك بمعنى الخبر.

قال تعالى: { وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ} [يس: 12].

قال ابن منظور بعد إيراد هذه الآية: "أي نكتب ما أسلفوا من أعمالهم ونكتب آثارهم: أي من سن سنة حسنة كتب له ثوابها، ومن سن سنة سيئة كتب عليه عقابها".[8]

وقد وردت كلمة أثر ومشتقاتها في القرآن الكريم خمس عشرة مرة في سور مختلفة.[9]

فالمعنى اللغوي والمعنى الاصطلاحي جاءت فيه كلمة أثر وآثار لتدل في الغالب على معنى واحد هو بقية الشيء وحصول ما يدل على وجوده، وهو مرادنا من هذا البحث.

أقسام الآثار:

لقد قسم القرآن الكريم الآثار إلى قسمين:

(1) قسم ما تزال آثاره باقية ماثلة للعيان.

(2) وقسم درس وباد.

قال تعالى: { ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ} [هود: 10].

والحصيد والهزيم في اللغة بمعنى واحد، قال الشاعر: تأبط شرًا:

منها هزيم ومنها قائم باق

أولًا: الآثار القائمة: ويقصد بها ما تركه الأقدمون من المباني المختلفة والكهوف المنحوتة والترع والسدود وغيرها من الآثار التي ما زالت موجودة إلى اليوم والتي يمكن للزائر الإطلاع عليها ببصره ومعاينتها بنظره وهذا النوع من الآثار منتشر جدًا في أطراف جزيرة العرب

([6]) محمد بن إسماعيل البخاري – صحيح البخاري. حديث رقم5985 – ط1423هـ دار ابن كثير ص1503.

([7]) محمد عبد الكريم المعروف بابن منظور. لسان العرب م الأول 69 مصدر سبق ذكره.

([8]) محمد بن عبد الكريم بن منظور. لسان العرب. م ص69. مصدر سبق ذكره.

([9]) محمد فؤاد عبد الباقي – المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. ص15 – ط – 1999. دار المعرفة بيروت.

والشام ومصر وبلاد اليونان وممالك الرومان، أو قل إن شئت في كل بلاد سكنها الناس وكانت لهم فيها حضارة ودور وديار.

فالأنباط في الأردن نحتوا مدينتهم الوردية في الصخر وسموها "البتراء" وفراعنة مصر بنوا الأهرامات جبالًا مصمته من الحجارة الضخمة، ونحتوا أبا الهول وبنوا القناطر، وشقوا الترع { وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا} [الروم: 9]. وفي بابل العراق وفي سورية ولبنان والصين واليونان وروما آثار ما زالت قائمة تشهد على الذين سكنوها { وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: 45]. فتجد مدنًا كاملة فيها الطرقات المرصوفة والأعمدة القائمة بتيجانها والأسواق الحمامات التي تتدفق من جوانبها المياه، وساحاتها التي يزدحم السياح فيها اليوم كما كان أصحابها قديمًا فيها يزدحمون.

ثانيا: الآثار الحصيد: وهي الآثار الدارسة التي ذابت مع الأيام وابتلعتها السنون ليس لها من شاهد على وجودها إلا صفحات التاريخ التي سجلت لها شكلًا من الحياة في غابر الزمان، وتحدثت عنها قليلًا أو كثيرًا، فحفظت لها في ذاكرة الزمان مكانًا يتناسب مع قدرها ومقدارها، إذ ليس لها من الحياة اليوم إلا ذاك.

الآثار في القرآن والحديث:

اهتم الإسلام بالآثار، وذلك بالإشارة إليها في مواضع كثيرة فجاءت الآيات في ثنايا كتاب الله تعالى تذكر مساكن الذين سبقوا وكيف كانت هذه المساكن، وما احتوته من أشكال العمارة فهي قصور مشيدة تارة، وهي بيوت فارهة تارة أخرى، متقنة البناء عظيمة المشهد، قال تعالى: { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: 45].

يقول ابن كثير: أي كم من قرية أهلكناها" وهي ظالمة" أي مكذبة لرسلها "فهي خاوية على عروشها" قال الضحاك: "سقوفها" أي قد خربت منازلها وتعطلت حواضرها "وبئر معطلة" أي لا يستقي منها ولا يردها أحد بعد كثرة وارديها والازدحام عليها "وقصر مشيد" قال عكرمة: يعني المبيض بالجص وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبي المليح والضحاك نحو ذلك. وقال آخرون: هو المنيف المرتفع وقال آخرون "المشيد" المنيع الحصين. وكل هذه الأقوال متقاربة ولا منافاة بينها فإنه لم يحم أهله

بشدة بنائه ولا ارتفاعه ولا إحكامه ولا حصانته عن حلول بأس الله بهم.[10] كما قال تبارك وتعالى: { أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ} [النساء: 78].

وقد بينت الآيات القرآنية في مواضع كثيرة أيضًا حال هذه المساكن من حيث إنها سكنت بعد خرابها ونزول العذاب بأهلها من قبل غير أولئك المعذبين أو إنها لم تسكن البتة بعد هذا الخراب. فمن هذه المساكن ما كان مأهولًا وقت نزول القرآن الكريم.

قال تعالى: { وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} [إبراهيم: 45].

يقول ابن كثير: "أي قد رأيتم وبلغكم ما أحللنا بالأمم المكذبة قبلكم ومع هذا لم يكن لكم فيهم معتبر ولم يكن فيما أوقعنا بهم لكم مزدجر".[11]

ومن هذه المساكن تلك التي لم تسكن إلا قليلًا جاء في قوله تعالى: { وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} [القصص: 58].

قال ابن كثير: "بطرت معيشتها" أي طغت وأشرت وكفرت نعمة الله تعالى فيما أنعم به عليهم من الأرزاق "فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلًا" أي دثرت ديارهم فلا تري إلا مساكنهم وقوله تعالى: { وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} أي رجعت خرابًا ليس فيها أحد.[12]

[قلت] الإشارة [بتلك] في قوله تعالى {فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ}تفيد توجيه القارئين والسامعين إلى النظر إلى تلك البيوت ولا يكون النظر إليها إلا بزيارتها والاطلاع على ما حل بها، لأن الاعتبار بمشاهدة الواقع الملموس أشد من الاعتبار بمجرد التخيل والافتراض.

ونوع آخر من هذه الآثار: بيوت لم تسكن بعد خرابها ولكن الناس يمرون بها في غدوهم ورواحهم فهي شاهدة صامته، ليس لها من الحركة إلا مرور الرياح السوافي على طرقاتها بصوت أشبه بالأنين يرثي لحال أولئك الذين سكنوها { أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى} [طه: 128].

([10]) إسماعيل بن كثير تفسير القرآن العظيم ج3 ص220. مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى1993. بيروت – لبنان.

([11]) إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم: ج 2 ص522.

([12]) إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم: ج 3 ص281.

يقول ابن كثير: أفلم يهد لهؤلاء المكذبين بما جئتهم به يا محمد كم أهلكنا من أمم المكذبين بالرسل قبلهم فبادوا فليس لهم باقية ولا عين ولا أثر كما يشاهدون ذلك من ديارهم الخالية التي خلفوهم فيها يمشون فيها[13].

ولم يقتصر القرآن الكريم على مجرد ذكر وجود هذه الآثار والمساكن ووصفها بل بين مكانها وأسماءها في كثير من الأحيان بل تعدي ذلك إلى أسماء ساكنيها ونجد ذلك كثيرًا في القصص القرآني. قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا} [الأعراف: 85]. قال القرطبي: ومدين هم قوم شعيب.[14] وقال تعالى: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ} [الأحقاف: 21].

قال الطبري: الأحقاف هي واد يسمي الأحقاف وهي بين عمان ومهرة.[15]

وأكثر من هذا وذاك تعال معي لنري ما حل بهذه المساكن وتلك الدور والقصور قال تعالى:

(فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ (51) فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (52)) [النمل: 51 - 52].

فهذه صورة كاملة عن الآثار في القرآن الكريم وكأنها تحيي لنا حالها في كل مرحلة من مراحل حياة هذه الأقوم وما خلفته وراءها من مساكن وآثار تنقل للقارئ والسامع قصة سنين طويلة وصراعًا مستمرًا ودائمًا بين الحياة والناس وبين الحق والباطل والهداية والضلال وما كان القرآن ليذكر كل هذه الأخبار إلا ليوظفها من أجل تحقيق هدف سام هو معرفة الحق والوصول إلى هذه المعرفة.

الآثار في الحديث الشريف

لم تغفل السنة النبوية الشريفة عن ذكر الآثار إلا أن التوجيه النبوي لذكرها لم يكن لسرد قصتها وبيان أشخاصها وما حل بها وبهم؛ لأن هذا الجانب أو سعه القرآن الكريم بيانًا وتفصيلًا فهو بذلك ليس من المبهم الذي يحتاج إلى الإيضاح، ولا من المجمل الذي يريد تفصيلًا بل هو قرآن يتلي، مفهوم العبارة واضح الإشارة في هذا الباب، لذلك مر ذكر الآثار

([13]) إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم: ج 3 ص165.

([14]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج9 ص85 دار الشعب. الطبعة الثانية1372م. القاهرة.

([15]) محمد بن جرير الطبري – تفسير الطبري جامع البيان. ج26 ص22 – ط – دار الفكر بيروت لبنان1405هـ.

في السنة النبوية المطهرة مرورًا سهلًا ميسورًا له علاقة واحدة بشرع الله تعالى هي بيان الحكم الشرعي في المرور بهذه الآثار أو الإقامة فيها، وما يترتب على هذا الحكم.

وهذا الشاهد يوقفك على هذا الغرض.

روى البخاري قال حدثنا عبد الله بن محمد الجعفي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم في الحجر قال: "لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه في السير حتى أجاز الوادي".[16]

فهذا الحديث الشريف وجه الصحابة الكرام إلى ضرورة أخذ العبرة في الوقوف على أمثال هذه الأماكن والآثار وكيفية التعامل معها. انطلاقًا من هذا التوجيه الشرعي وخطاب النبي صلى الله عليه وسلم لآحاد المسلمين هو خطاب لعموم الأمة كما هو مقرر ومعلوم.

ولم يتغير الهدف من ذكر الآثار في الحديث الشريف عن أخذ العبرة من الوقوف عليها وعن بيان الحكم الشرعي في كيفية التعامل معها.

آثار الأقوام الذين ذكروا في القرآن الكريم

أنت خبير بأن القرآن الكريم لم يأت على ذكر جميع الأنبياء والمرسلين وقصصهم مع وأقوامهم. انطلاقًا من قول تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ} [غافر: 78].

لذلك تحدث القرآن الكريم عن بعض هؤلاء الأنبياء والرسل الكرام وبين جانبًا من حياتهم مع أقوامهم وموقف هؤلاء الأقوام منهم ومن دعوتهم.

ولذلك كان لابد للقرآن الكريم من وصف كل ما يتعلق بهم من عدد وعدة ومال وجلال ليدل على قوتهم المادية تارة وعلى عقولهم وطريقة تفكيرهم تارة أخرى فكان لابد من وصف الحال والمكان وبيان الوقت والزمان { وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آَمِنِينَ (82) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ} [الحجر: 82 - 83].

([16]) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري جزء1 ص631. دار الريان للتراث الطبعة الثانية. 1409هـ1988.

وذلك لتكون الصورة واضحة جلية والعبرة منها كما قال تعالى: { سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [فصلت: 53].

خبر قوم نوح:

هو نوح بن لامك "بفتح اللام وسكون الميم بعدها كاف" بن متوشلخ بن أخننوخ "وهو إدريس فيما يقال" بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن شيث بن آدم عليه السلام[17].

قال أهل التفسير: لبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا داعيًا لهم وهم على كفرهم وعصيانهم، قال: ابن عباس: "جاء نوح عليه الأبناء بعد الآباء، فيأتي بهم الولد بعد الولد حتى بلغوا سبع قرون، ثم دعا عليهم بعد الإياس منهم، وعاش بعد الطوفان ستين عامًا حتى كثر الناس وفشوا".[18]

وصحح ابن حبان من حديث أبي أمامة: "أن رجلًا قال: يا رسول الله أنبيًا كان آدم؟ قال نعم قال: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال عشرة قرون".[19]

وكان اسم نوح السكن لأن الناس بعد آدم سكنوا إليه فهو أبوهم وإنما سمي نوحًا لأنه ناح على قومه ألف سنة إلا خمسين عامًا يدعوهم إلى الله فإذا كفروا بكى وناح عليهم.[20]

وقوم نوح عليه السلام هم بنوا راسب فيما ذكره ابن جبير وغيره.[21]

وقيل إنهم كانوا قوم كثر.

أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد قال: ما عذب قوم نوح حتى ما كان في الأرض سهل ولا جبل إلا له عامر يعمره وحائز يحوزه.

وأخرج أيضًا عن زيد بن أسلم أن أهل السهل كان قد ضاق بهم حتى ما يقدر أهل السهل أن يرتفعوا إلى الجبل ولا أهل الجبل أن ينزلوا إلى السهل في زمان نوح[22].

([17]) إسماعيل بن كثير: البداية والنهاية ج – ط1979م. مكتبة المعارف ص(100)

([18]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج – ط – دار الحديث القاهرة 1423هـ ص(507).

([19]) ابن حجر. فتح الباري ج6 ص428 – 429.

([20]) السيوطي – جلال الدين بن عبد الرحمن: الدر المنشور ج3 ص480 دار الفكر. بيروت لبنان 1993م.

([21]) إسماعيل بن كثير – البداية والنهاية ج – ط1979م مكتبة المعارف ص101.

([22]) السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن. الدر المنثور ج3 ص482. دار الفكر. بيروت لبنان.

وقد أرسل الله تعالى نوحًا إلى قومه من المشركين عبدة الأصنام.

قال تعالى: { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (25) أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (26) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ} [هود: 25 - 27].

بعد أن فشت فيهم المعاصي وكثرت الجبابرة وعتوا عتوًا كبيرًا وكان نوح يدعوهم ليلًا ونهارًا سرًا وعلانية صبورًا حليمًا ولم يلق أحد من الأنبياء أشد مما لقي نوح فكانوا يدخلون عليه فيخنقونه ويضرب في المجالس ويطرد وكان لا يدعو على من يصنع به إلا أن يقول: "رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون".

فكان لا يزيدهم ذلك إلا فرارًا منه واشتد عليه البلاء وكان ينتظر القرن بعد القرن والجيل بعد الجيل فلا يأتي قرن إلا وهو أخبث من الأول.

قال ابن عباس: كان الرجل فيهم يأخذ بيد ابنه فينطلق إلى نوح عليه السلام فيقول: احذر هذا فإنه كذاب وإن أبي قد أتى بي إلى هذا وقال لي مثل ما قلت لك. فيمت الكبير على الكفر وينشأ الصغير على وصية أبيه.[23]

وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا مهران عن سفيان عن موسي عن محمد بن قيس "ويغوث ويعوق وسواعًا ونسرًا" قال: كانوا قوما صالحين بين آدم ونوح وكان لهم أتباع يقتدون بهم فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة فصوروهم فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم ثم إن الناس قد استمروا على عبادتهم في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم.[24]

وعلى الرغم من طول مقام نوح مع قومه يدعوهم إلى عبادة الله تعالى. إلا أنه لم يؤمن بدعوته إلا القليل قال تعالى: { وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ} [هود: 40].

([23]) الدر المنثور ج2 ص480.

([24]) إسماعيل بن كثير. تفسير القرآن العظيم ج4 ص427.

قال ابن عباس رضي الله عنه: آمن من قومه ثمانون إنسانًا منهم ثلاثة من بنيه سام وحام ويافث وثلاث كنائن[25] له، ولما خرجوا بنوا قرية وهي تدعي قرية الثمانين بنواحي الموصل.

وقال قتادة والحكم بن عيينة وابن جريج ومحمد بن كعب: كانوا ثمانية أنفس وقال ابن إسحق: كانوا عشرة سوى نسائهم.[26]

عند ذلك دعا نوح ربه فقال: { وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (26) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا} [نوح: 26 - 27].

وتأتي إجابة الله تعالى سريعًا: { فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ} [القمر: 11 - 12].

ثم إن الله تعالى أمر نوحًا والذين آمنوا معه { وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا} [هود: 41].

قال عكرمة: ركب نوح عليه السلام في السفينة في اليوم العاشر من رجب ونزل منها في اليوم العاشر من محرم، وهو يوم عاشوراء فقال لمن كان معه: من كان صائمًا فليتم صومه ومن لم يكن صائمًا فليصمه.[27]

وعن الخاتمة تتحدث الآيات الكريمة: { وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ} [هود: 44].

الجودي: قال صاحب معجم البلدان:

الجودي ياؤه مشددة هو جبل مطل على جزيرة ابن عمر في الجانب الشرقي من دجلة من أعمال الموصل.[28]

وقال مجاهد: شامخت الجبال وتطاولت لئلا ينالها الغرق فعلا الماء فوقها خمسة عشر ذراعًا وتطامن الجودي، وتواضع لأمر الله تعالى فلم يغرق ورست السفينة عليه[29].

([25]) و(الكنة) بالفتح امرأة الابن وجمعها كنائن. محمد بن أبي بكر الرازي. مختار الصحاح – ط – دار المعارف ص580 الطبعة السابعة. دار المعارف.

([26]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج9 ص34. دار الشعب.

([27]) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي النكت والعيون ص473. الطبعة الأولى 1412هـ. دار الكتب العلمية.

([28]) ياقوت عبد الله الحموي. معجم البلدان ج2 ص179 دار الفكر. بيروت لبنان.

([29]) محمد بن أحمد القرطبي الجامع لأحكام القرآن. ج9 ص41 – 42. دار الشعب. الطبعة الثانية 1372هـ القاهرة.

وقال أبو مسلم الجودي اسم لكل جبل وأرض صلبة وفي كتاب النبوة مسندًا إلى أبي بصير عن أبي الحسن علي بن موسى بن جعفر عليهما السلام قال كان نوح لبث في السفينة ما شاء الله وكانت مأمورة فخلى سبيلها فأوحى الله إلى جبل إني واضع سفينة نوح على جبل منكن فتطاولت الجبال وشمخت وتواضع الجودي.....وقيل أرست السفينة على الجودي شهرًا.[30]

وقال الضحاك: الجودي جبل بالموصل.[31]

وقد أهلكهم الله جميعًا. ولم ينج منهم أحد إلا الذين ركبوا مع نوح في السفينة، قال ابن أبي حاتم قرأ على يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرني شبيب بن سعيد عن أبي الجوزاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "لو رحم الله من قوم نوح أحدًا لرحم امرأة لما رأت الماء حملت ولدها ثم صعدت الجبل فلما بلغها الماء صعدت به منكبها فلما بلغ الماء منكبها وضعت ولدها على رأسها فلما بلغ الماء رأسها رفعت ولدها بيديها. فلو رحم الله منهم أحدًا لرحم هذه المرأة"[32].

وقال ابن عباس كانت دار نوح عليه السلام دمشق وأنشأ سفينته من خشب لبنان بين زمزم وبين الركن والمقام[33].

وقبر نوح عليه السلام كما روى ابن جرير والأزرقي عن عبد الرحمن بن سبط وغيره من التابعين مرسلًا أن قبر نوح عليه السلام بالمسجد الحرام[34].

أما عن الناس من بعد نوح عليه السلام فقد ذكر النقاش عن سليمان بن أرقم عن الزهري أن العرب وفارس والروم وأهل الشام وأهل اليمن من ولد سام بن نوح.

والسند والهند والزنج والحبشة والزط والنوبة وكل جلد أسود من ولد حام بن نوح.

والترك والبربر والصين ويأجوج ومأجوج والسقالبة كلهم من ولد يافث بن نوح، والله اعلم.[35]

([30]) أبي علي الفضل بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن ج5 – 6ط1 1406هـ دار المعرفة ص250.

([31]) أبي الحسن علي بن محمد الماوردي – النكت والعيون – م2 ط1 1412هـ دار الكتب العلمية ص474.

([32]) محمد بن أحمد القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج9 ص41. دار الشعب.

([33]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج9 ص43. دار الشعب.

([34]) ابن كثير – البداية والنهاية ج1 ص25.

خبر قوم عاد:

وعاد قبيلة، وهي نسبة إلى عاد.

قال ابن إسحاق: وعاد هو بن عوص بن أرم بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام[36].

وكانوا عربًا يسكنون الأحقاف[37].

[قلت] وينسبون اليوم إلى العرب البائدة.[38] وهو ما استطال من الرمل العظيم واعوج ولم يبلغ أن يكون جبلًا. والجمع حقاف وأحقاف والأحقاف، حقوف واحقو قف الرمل والهلال أي اعوج.[39]

والأحقاف واد بين عمان وأرض مهرة قاله ابن عباس.[40]

ولم يعين القرآن موقعها إلا أن الإخباريين يقولون: إن موقعها بين اليمن وعمان وحضر موت والسحر.[41]

وقال قتادة: الأحقاف رمال مشرفة على البحر في المشرق من أرض اليمن.[42]

[قلت]: وكل هذه الأقوال تتعلق بمكان واحد أقامت فيه عاد في اليمن وموقعه اليوم في منطقة مدينة المكلا.

قال امرؤ القيس:

ولما تجاوزنا ساحة الحي وانتحى بنا بطن خبت ذي حقاف عقنقل

وذكر ابن قتيبة أنهم كانوا ثلاث عشرة قبيلة ينزلون الرمل بالدهناء وعالج ووبار وعمان إلى حضر موت وكانت ديارهم أخصب البلاد وأكثرها جنانًا[43].

([35]) من بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج7 ص232. دار الشعب.

([36]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن ج4 ص206. دار الشعب.

([37]) ابن كثير – البداية والنهاية ج1 ص120.

([38]) عفيق عبد الفتاح طباره – مع الأنبياء في القرآن ط15 – 1985م دار العلم للملايين ص85

([39]) راجع الصحاح1346/4.

([40])حسنين محمد مخلوف: تفسير وبيان كلمات القرآن الكريم بهامش القرآن الكريم مذيلًا أسباب النزول للواحدي – ط5 1418هـ ص505.

([41])عفيف بن عبد الفتاح طباره مع الأنبياء القرآن – ط15 – 1985م دار العلم للملايين ص86.

([42]) ياقوت بن عبد الله الحموي – معجم البلدان: ج1 ص115

وكان قوم عاد فيما يروى عظام الأجسام وأقوياء. وروى شهر بن حوشب عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: إنه كان الرجل من قوم عاد يتخذ المصراعين من حجارة لو اجتمع عليها خمسمائة رجل من هذه الأمة لم يطيقوه وإن كان أحدهم يغمز برجله الأرض فتدخل فيها. فاذكروا آلاء الله.[44]

وقال وهب بن منبه: كان رأس أحدهم مثل القبة وقيل كان طوله اثني عشر ذراعًا وأطولهم مائة والله أعلم.[45]

وكانوا يعبدون الأصنام صنمًا يقال له صداء وآخر اسمه: صمود وصنم يقال له: الهباء.[46]

وقد بعث الله في قوم عاد نبيًا اسمه هود وهو من نسب عبد الله بن رباح بن الخلود بن عاد بن عوص بن إرم[47] وقد كان عليه السلام أشبه الناس بآدم عليه السلام[48].

فدعاهم إلى عبادة الله تعالى ونبذ عبادة الأصنام فما كان من أمرهم إلا أن زادوا في طغيانهم وجحودهم، واغتروا بقوة أجسامهم وعظمها فحبس الله تعالى عنهم المطر وأعقم الأرحام ثلاث سنين كما أخرج ابن عساكر عن الضحاك فقال لهم هود عليه السلام: { وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} [هود: 52]. فأبوا إلا تماديًا[49].

وبعد أن كانت بلادهم أخصب البلاد العربية وأكثرها ربيعًا وأنهارًا وجنانًا أصبحت مقفرة مجدبة. وأرسل الله تعالى عليهم الريح العقيم في سبع ليال وثمانية أيام حسوما تنزع الناس حتى أنها تفصل رؤوسهم عن أجسادهم فلا يري إلا مساكنهم قائمة.[50]

{ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ} [الحاقة: 7].

([43]) أحمد بن حجر العسقلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج6 ص277.

([44]) محمد بن أحمد القرطبي: الجامع لأحكام القرآن ج7 ص236. دار الشعب.

([45]) أحمد بن حجر العسقلاني: فتح الباري لشرح صحيح البخاري ج6 ص376.

([46]) محمد بن جرير الطبري.

([47]) عفيف عبد الفتاح طباره – مع الأنبياء في القرآن الكريم ط15 – 1985م العلم للملايين ص85.

([48]) الحاكم النيسابوري – المستدرك على الصحيين ج2 ص616.

([49]) السيوطي – جلال الدين عبد الرحمن السيوطي – الدر المنثور ج4 – ط – دار الفكر بيروت1993م ص442

([50]) فضل حسن عباس – القصص القرآني ص104.

روى الطفيل عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: خير واديين في الناس واد بمكة وواد أنزل به آدم عليه السلام بأرض الهند، وشر واديين في الناس واد في الأحقاف وواد في حضر موت يدعي برهوت تلقي فيه أرواح الكفار، وخير بئر في الناس بئر زمزم وشر بئر في الناس بئر برهوت وهو في ذلك الوادي الذي بحضر موت[51].

وقد عمر هود عليه السلام في قومه بعدهم مائة وخمسين سنة[52] وقبره عليه السلام بحضر موت في كثيب أحمر كما أخرج البخاري في تاريخه وابن جرير وابن عساكر عن علي بن أبي الب رضي الله عنه عنه قال: قبره بحضر موت في كثيب أحمر على رأسه سدرة.

خبر أصحاب الحجر:

يطلق الحجر على عدة معان منها حجر الكعبة، ومنها الحرام قال تعالى: { حِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: 22]. أي حرامًا محرمًا عليكم البشري.[53]

والحجر العقل[54] قال تعالى: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ} [الفجر: 5].

والحجر منازل ثمود بوادي القرى بين المدينة ناحية الشام عند وادي القرء.[55] ومنه قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر: 50]. قال الاصطخري الحجر قرية صغيرة قليلة السكان وهو من وادي القرى على مسيرة يوم بين الجبال وبها كانت منازل ثمود. قلت: ومسيرة اليوم تقدر بحوالي ثلاثين كيلو مترًا.[56]

وقال القرطبي: هي ما بين مكة وتبوك.[57]

قال تعالى: { وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَارِهِينَ} [الشعراء: 149]. قال الاصطخري[58]: رأيتها "أي بيوتهم: بيوتًا مثل بيوتنا في أضعاف الجبال وتسمي تلك الجبال "الغاسول" وهي

([51]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن – ج16 ص204.

([52]) السيوطي. الدر المنثور ج3 ص488 دار الفكر بيروت لبنان1993.

([53])حسنين محمد مخلوف – كلمات القرآن الكريم بهامش القرآن الكريم مذيلًا بأسباب النزول للواحدي – ط5 – 1418هـ ص362.

([54]) محمد بن أبي بكر الرازي. مختار الصحاح – ط7 – دار المعارف ص123.

([55]) محمد بن أبي بكر الرازي – مختار الصحاح – ط7 – دار المعارف ص124.

([56]) ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان: ج2 ص221

([57]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن: ج10 – ص46

([58]) الأصطخري: الأعلام للزركلي ج1 – ط12 – دار العلم للملايين 1997م ص61.

جبال إذا رآها الرائي من بعيد ظنها متصلة فإذا توسطها رأي كل قطعة منها منفردة بنفسها. يطوف بكل قطعة منها الطائف وحواليها الرمل لا تكاد ترتقي، كل قطعة منها قائمة بنفسها لا يصعدها أحد إلا بمشقة كبيرة. وبها بئر ثمود والتي قال الله فيها { لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ} [الشعراء: 155].

خبر ثمود[59] وثمود في اللغة مأخوذة من ثمد الماء إذا قل والمكان هيأه كالحوض ليجتمع فيه الماء.[60]

ونسبهم كما قال علماء التفسير.[61] ثمود بن عاثر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام وهو أخو جديس بن عاثر وكذلك قبيلة طسم كل هؤلاء كانوا أحياء من العرب العاربة قبل إبراهيم عليه السلام وكانت ثمود بعد عاد ومساكنهم كما ذكرنا من قبل.[62]

قال القرطبي في تفسيره:

أول من نحت الجبال، والصور، والرخام ثمود، فبنوا من المدائن ألفًا وسبعمائة مدينة كلها من الحجارة ومن الدور والمنازل ألف ألف وسبعمائة ألف وكلها من الحجارة وكانوا بقوتهم يحرجون الصخور وينقبون الجبال ويجعلونها بيوتا لهم في وادي القرى، والله أعلم[63].

وقد عبدت ثمود الأصنام فبعث الله إليهم سيدنا صالح عليه السلام وهو صالح بن عبيد بن اسيف بن ماشخ بن عبيد بن حاجر بن ثمود بن عامر بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.[64]

وقد ذكر في نسبه غير هذا.

فدعاهم نبي الله تعالى إلى عبادة الله وحده ونبذ ما يعبدون من الأصنام فأبوا ذلك وكذبوا وقالوا له: { قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [هود: 62].

([59]) ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان: ج2 ص221

([60]) إبراهيم مصطفي وآخرون – المعجم الوسيط. ج1 ص106.

([61]) إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم: ج2 ص228.

([62]) المرجع السابق ص228.

([63]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن: ج20 ص48.

([64]) ابن حجر – فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ج6 ص379.

ثم طلبوا ناقة يخرجها لهم من الصخر وتفننوا في وصفها، فأخرج الله لهم ناقة من الصخر في الصفة المطلوبة فآمن بعضهم وكفر البعض، واتفقوا على أن يتركوا الناقة ترعى حيث شاءت وترد الماء يومًا بعد يوم فكانت إذا وردت تشرب ماء البئر كله وكانوا يرفعون حاجتهم من الماء في يومهم من الغد ثم ضاق بهم الأمر في ذلك فانتدبوا منهم "قدارًا"[65].فباشر عقرها[66].

قال تعالي: { كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا (11) إِذِ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا (12) فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا (13) فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا (14) وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس: 11 - 15].

فلما بلغ ذلك صالحًا عليه السلام أعلمهم بأن العذاب سيقع بهم ثلاثة أيام فوقع كذلك كما أخبر الله تعالى في كتابه.[67]

فأرسل الله تعالى عليهم الصيحة، قال تعالى: { إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ} [القمر: 31].

ولقد مر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة وقد سبق الصحابة إليها فشربوا وعجنوا وأخذوا الماء لهم من بئر ثمود. فلما وصل النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم أن يهرقوا الماء الذي معهم وأن يعلفوا العجين دوابهم.

قال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد الجعفي حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما مر النبي صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، أن يصيبكم ما أصابهم إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي[68].

وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا صخر بن جويرية عن نافع عن ابن عمر قال: لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس على تبوك نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود

([65]) اسمه قدار بن سالف قيل كان أحمرًا أزرق أصهب البداية والنهاية. ابن كثير ج1 (128 - 131) - ط1 - 1408هـ

([66]) فتح الباري جزء6 ص379.

([67]) ابن حجر - فتح الباري بشرح صحيح البخاري: ج6 ص379.

([68]) ابن حجر فتح الباري بشرح البخاري: ج1 ص632.

فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود وعجنوا منها ونصبوا بها القدر فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فاهرقوا القدور وعلفوا العجين الإبل ثم ارتحل بهم حتى نزل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال: "إني أخشي أن يصيبكم مثل ما أصابهم فلا تدخلوا عليهم".[69] وما زالت آثارهم قائمة وشاهدة على عذابهم إلى وقتنا الحاضر قرب تبوك، إلى الشمال الغربي من المدينة المنورة اليوم.

([69]) أحمد بن محمد بن حنبل. المسند ج2 ص117 حديث رقم 5984 مؤسسة قرطبة مصر.

خبر سدوم:

سدوم على وزن فعول من السدم، سدم فلان: هم أو غيض[70] مع حزن والندم مع الغم.

وقيل هي سذوم بالذال المعجمة.

وسدم الماء سدمًا: تغير لطول عهده ووقع فيه التراب وغيره واندفن، سدم بالشيء: حرض عليه ولهج به فهو سادم. يقال هو سادم نادم وسدمان ندمان.[71]

وجاء في معجم البلدان هي مدينة من مدائن قوم ألفا. كان قاضيها يقال له سدوم وقيل: سذوم بالذال المعجمة وهو خطأ.

قال الأزهري: وهو الصحيح وهو أعجمي.

قال الشاعر:

كذلك قوم ألفا حين أضحوا كعصف في سدومهم رميم

وهذا يدل على أنه اسم البلد لا اسم القاضي.

إلا أن قاضيها يضرب به المثل فيقال: "أجور من قاضي سدوم" وكان حكم على أنه إذا ارتكبوا الفاحشة من أحد أخذ منه أربعة دراهم[72].

أما عن مكانها كما جاء في تفسير ابن كثير أن سدومًا وأعمالها التي أهلكها الله تعالى.

وجعل مكانها بحيرة منتنة خبيثة وهي مشهورة ببلاد الغور. متاخمة لجبال بيت المقدس بينها وبين بلاد الكرك والشوبك[73].

وهي الآن تسمي بالبحر الميت في غور الأردن إلى الجنوب الغربي من عمان.

وهي عدة مدائن سماها القرآن الكريم "بالمؤتفكات" أي المنقلبات واختلف في عددها. قال القرطبي عن ابن عباس: كانت سبع قرى قلب جبريل عليه السلام ستة منها وأبقى واحدة للوط وعياله، وهي "زغر" التي فيها الثمر من كورة فلسطين إلى حد السراه وبها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز[74].

([70]) غيض: الدمع (تغييضًا) نقصه وحبسه. مختار الصحاح. مرجع سبق ذكره ص486.

([71]) المعجم الوسيط. الجزء الأول ص426.

([72]) ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان: ج3 ص200.

([73]) إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم: ج3 ص345.

([74]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن: ج11 ص306.

وجاء في المستدرك أنها خمس أعظمها سدوم ثم عمود ثم أروم ثم صعور ثم صابور.[75] وكذلك جاء في تفسير القرطبي بأنها خمس وهي أعظمها وعامورا ودادوما وضعوه وقتم[76].

وجاء في تاريخ الطبري أنها ثلاث قرى[77].

فيها أربعة آلاف ألف [أي أربعة ملايين] نسمة كذلك جاء في المستدرك. والله أعلم.[78]

وقد بعث الله إليهم سيدنا لوط عليه السلام. وهو الفأ بن هاران بن تارح عليه السلام.[79]

وقد ذكر في نسبه روايات أخرى.

واتفقت الروايات على أنه من بيت إبراهيم عليه السلام آمن به وأخرج معه من بابل بأرض العراق إلى الأراضي المقدسة. واختلفت الروايات أهو من ولد إبراهيم عليه السلام أو ولد أخيه، أو هو أخو سارة والصحيح أنه ولد أخيه[80]. لذلك لم يكن يلتقي مع سيدنا لوط [الفآء] عليه السلام من أهل سدوم في نسبه أحد فهو من العراق وهم من الشام كما جاء في قوله تعالى على لسان لوط { لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ} [هود: 80]. أي إلى قوم وعشيرة.[81]

ومختصر ما حصل معه عليه السلام أنه لما جاء مع إبراهيم عليه السلام إلى الشام وبالتحديد إلى الأردن بعث الله تعالى نبيه لوط إلى أهل سدوم وكانوا أخبر الله عنهم أهل فاحشة ويقطعون الطريق. قال تعالى: {وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ (28) أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [العنكبوت: 28 - 29].

([75]) المستدرك على الصحيحين جزء2 ص612 حديث رقم 4058.

([76]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن: ج9 ص81.

([77]) تاريخ الطبري الجزء الأول ص182.

([78]) المستدرك جزء 2 ص612.

([79]) تاريخ الطبري الجزء الأول ص175.

([80]) المستدرك جزء2 ص611.

([81]) فتح الباري ج6 ص415 مصدر سابق.

فبقي فيهم سيدنا الفاء عليه السلام بضعًا وعشرين عامًا يدعوهم إلى عبادة الله تعالى وترك ما هم عليه من الفواحش[82]. ولما جاءت الملائكة لوطًا عليه السلام على هيئة رجال حسان وسمع القوم بهم راودوه عن ضيوفه قال تعالى: { وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِرٌّ} [القمر: 39 - 38].

فأنزل الله تعالى عليهم عذابه بأن أرسل عليهم حجارة مسومة وخسف بهم الأرض وأحال مكانهم بحيرة منتنة[83].

خبر أصحاب الكهف:

وهم الفتية الذين أخبر الله تعالى عنهم في سورة الكهف الذين آمنوا بالله تعالى وكانوا عند ملك كافر قيل اسمه دقيانوس يدعو لعبادة الأصنام.[84]

وقيل إنهم من الروم. اتبعوا دين عيسي عليه السلام.

وقيل كانوا قبل عيسي عليه السلام والله أعلم.[85]

فخرجوا مع كلبهم من مدينتهم هربًا بدينهم فلما تعبوا وجدوا كهفًا. فدخلوا يستريحون فيه فأنامهم الله تعالى ثلاثمائة وتسع سنين.

وتفصيل هذا الخبر كما ذكره القرآن الكريم في سورة الكهف: {أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا (9) إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا (10) فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا} [الكهف: 9 - 11].

أما عن فترة مقامهم في هذا الكهف وهم نيام فالقرآن الكريم يحددها بدقة بالغة: { وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِئَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا (25) قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ

([82]) المستدرك على الصحيحين ج2 ص612 رقم458.

([83]) فضل حسن عباس القصص القرآني ص186 دار الفرقان الثانية الطبعة 1992 عمان الأردن وانظر تفسير القرآن العظيم الجزء3 ص345.

([84]) ابن كثير القرآن العظيم ج5 ص136 - 137. وانظر معجم البلدان ج1 ص73.

([85]) محمد بن أحمد القرطبي - الجامع لأحكام القرآن: ج10 ص359.

وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} [الكهف: 25 – 26]. أما عن عددهم فقد اختلف فيه بين الثلاثة والخمسة والسبعة.

{ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ} [الكهف: 22]. أما الثلاثة والأربعة والخمسة فقد نفاها الله تعالى إذ قالك "رجما بالغيب". والراجح أنهم سبعة. أما عن مكان الكهف فلا يعرف تحديدًا قيل بين عمورية ونيقية وقال بعضهم إنه في البلقاء بأرض العرب من نواحي دمشق.[86]

هذا إلى الجنوب من عمان بالقرب من سحاب اليوم.

وقالوا: إن عمان هي مدينة دقيانوس.

وقيل إنه في بر الأندلس وأن طليطلة هي مدينة دقيانوس.

قال ابن كثير في تفسيره: الله أعلم بأي بلاد هو ولو كان لنا فيه مصلحة دينية لأرشدنا الله تعالى ورسوله إليه.[87]

أخبرنا عبد الرزاق عن معمر عن عمران صاحب له قال صلى الله عليه وسلم: "ما تركت شيئًا يقربكم إلى الجنة ويباعدكم عن النار إلا قد بينته لكم وإن روح القدس نفث في روعي، وأخبرني أنها لا تموت نفس حتى تستوفي رزقها، وإن أبطأ عنها فيا أيها الناس! اتقوا الله وأجملوا في الطلب ولا يحملن أحدكم استبطاء رزقه أن يخرج إلى ما حرم عليه".[88] فأعلمنا الله تعالى بصفته ولم يعلمنا بمكانه.

فقال تعالى: { وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ} [الكهف: 17] أي في متسع منه داخلًا بحيث لا تسمهم إذ لو أصابتهم لأحرقت ثيابهم وأبدانهم قاله ابن عباس[89].

وجاء في تفسير ابن كثير وصف دقيق لمكان الكهف استدلالًا بأخبار الله تعالى الذي ذكرناه آنفا فيقول:

([86]) معجم البلدان ج1 ص61.

([87]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ج5 ص139.

([88]) المصنف: لعبد الرزاق الصنعاني ج11 ص125 ط2 1403هـ.

([89]) إسماعيل بن كثير – تفسير القرآن العظيم: جزء3 ص76.

كانت الشمس تدخل عليهم في الكهف بكرة وعشيًا قال: فهذا فيه دليل على أن باب الكهف من نحو الشمال لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلته عند طلوعها تزاور عنه ذات اليمين أي يتقلص الفيء عنه كما قال – وإنها كلما ارتفعت في الأفق تقلص شعاعها حتى لا يبقي منه شيء عند الزوال في مثل ذلك المكان.

ولهذا قال: "وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال" أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه وهو من ناحية المشرق فدل على صحة ما قلناه وهذا بين لمن تأمله وكان له علم بمعرفة هيئة وسير الشمس والقمر والكواكب وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق لما دخل إليه منها شيء عند الغروب ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تزاور الفئ يمينًا وشمالًا. ولو كان من جهة الغرب لما دخلته وقت الطلوع بل بعد الزوال ولم تزل فيه إلى الغروب فتعين ما ذكرنا.[90]

وهذا الوصف ينطبق كثيرًا على الكهف الذي ذكرناه جنوب عمان في الأردن والله أعلم.

خبر مدين:

مدين بفتح أوله وسكون ثانية وفتح الياء وآخره نون مدينة على بحر القلزم "بضم القاف" محاذية لتبوك على نحو من ست مراحل.[91] وهي أكبر من تبوك وبها البئر التي استقى منها موسى عليه السلام لسائمة شعيب عليه السلام ومدين اسم القبيلة وهي مدينة قوم شعيب سميت بمدين نسبة إلى مدين بن إبراهيم عليه السلام.[92] وقيل إن مدين اسم لبلد وقطر.

وكان قومها أهل كفر بالله تعالى وبخس للمكيال والميزان وذلك بالتعييب والتزهيد فيها. أو المخادعة عن القيمة والاحتيال في التزيد في الكيل والنقصان منه وكل ذلك من أكل المال بالباطل. وذلك منها عنه في الأمم المتقدمة والسالفة على ألسنة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم جميعًا وحسبنا الله ونعم الوكيل قال ابن عباس: كانت الأرض قبل أن يبعث شعيب يعمل فيها بالمعاصي وتستحل فيها المحارم وتسفك فيها الدماء قال: فذاك فسادها. كما كانوا يقطعون الطريق ويتوعدون الناس بالقتل إن لم يعطوهم مالًا.[93]

([90]) المرجع السابق جزء3 ص76.

([91]) مدين: قرية شعيب عليه السلام مختار الصحاح. مرجع سابق ص619.

([92]) وانظر مع الأنبياء في القرآن الكريم ص199. معجم البلدان ج5 ص77.

([93]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن: ج7 ص247.

قال تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (85) وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[الأعراف: 85 - 86].

فبعث الله تعالى إليهم شعيبًا بن يشجر بن مدين بن إبراهيم عليه السلام، وكان اسمه بالسريانية بيروت، وأمه ميكائيل بنت لوط ..... وقيل شعيب بن صفوان بن عبقاء بن ثابت بن مدين بن إبراهيم، والله أعلم.[94]

روي ابن حبان في حديث أبي ذر الطويل أربعة من العرب "هود وصالح وشعيب ومحمد عليه السلام" فعلى هذا هو من العرب العاربة. [قلت] أي إنه على هذا ليس من أبناء إبراهيم عليه السلام. وكان يقال له خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه.[95] فلما صدوا عن الحق وكذبوا نبي الله شعيبًا بقولهم: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ} [الأعراف: 90].

ثم طلبوا منه أن يأتيهم بالعذاب الذي يخوفهم به فقالوا:

{أَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ} [الشعراء: 187].

لذلك أنزل الله تعالى بهم أشكالًا من العذاب المتلاحق.

قال تعالى: { فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [الأعراف: 91].

وقال تعالى: { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: 189].

وقال تعالى: { وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} [هود: 94].

([94]) محمد بن أحمد القرطبي - الجامع لأحكام القرآن: ج4 ص216 - 217.

([95]) محمد بن أحمد القرطبي - الجامع لأحكام القرآن: ج7 ص248.

يقول ابن كثير: اجتمع عليهم ذلك كله أصابهم عذاب يوم الظلة وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ووهج عظيم. ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجة من الأرض شديدة من أسفل منهم فزهقت الأرواح وفاضت النفوس وخمدت الأجسام[96].

خبر أصحاب الأيكة:

الأيك الشجر الملتف الكثير الواحدة أيكة. وفي قراءة: "أصحاب الأيكة" فهي الغيضة. ومن قرأ "ليكة" فهو اسم القرية، وقيل مثل بكة ومكة.[97] وأيك بالفتح التي جاء ذكرها في كتاب الله تعالى: قيل هي تبوك وأهل تبوك يقولونه ويعرفونه، ويقولون إن شعيبًا عليه السلام أرسل إلى أهل تبوك، قال جرير:

طرب الحمام بذي الأراك فساقني لازلت في غلل وأيك ناضر

ومدين وتبوك متجاورتان وقد مر معك ذكر مدين. أما تبوك بين الحجر وأول الشام على أربع مراحل من الحجر وهو حصن به عين ماء ونخل وحائط "أي بستان" ينسب إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

وهي مدينة من مدن السعودية اليوم على الطريق بين معان والمدينة المنورة بالقرب من الحدود الأردنية السعودية. بعث الله تعالى إليهم شعيبًا عليه السلام. وإلى مدين كما سبق وكان شعيب عليه السلام من أهل مدين وليس من تبوك. وروي عبد الله بن وهب عن جرير حازم عن قتادة قال: أرسل شعيب عليه السلام إلى أمتين: إلى قومه من أهل مدين، وإلى أصحاب الأيكة، والأيكة غيضة من شجر ملتف.[98]

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس "وإن كان أصحاب الأيكة" قال: هم قوم شعيب، والأيكة أرض ذات أجام وشجر كانوا فيها.

وقيل كانوا يأكلون في الصيف الفاكهة الرطبة وفي الشتاء الفاكهة اليابسة "أي المجففة" كما أخرج ابن جرير عن خصيف[99].

([96]) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم: ج2 ص223.

([97]) انظر تفسير القرآن العظيم ج7 ص124. ومختار الصحاح ص26. والمحرر الوجيز للابن عطية ج4 – ط1 – 1413هـ دار الكتب العلمية ص241.

([98]) ذكره النحاس في إعراب القرآن190/3انظر القرآن العظيم ج7 ص125.

([99]) الدر المنثور ج5 ص92.

قال تعالى: { كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ (176) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ} [الشعراء: 176 - 177].

وقال تعالى: { فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الشعراء: 189].

وأخرج ابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي أن أهل مدين عذبوا بثلاثة أنواع من العذاب أخذتهم الرجفة في دارهم، فلما خرجوا منها أصابهم فزع شديد، ففرقوا أن يدخلوا بيوتًا أن تسقط عليهم فأرسل الله تعالى عليهم الظلة.

وهذا قول من يعتبر أن مدين هي ذاتها الأيكة والله أعلم.[100]

ويمكن الجمع بين القولين بأن العذاب بأشكاله الثلاثة الموصوفة قد وقع بالقريتين في وقت واحد.

أو أنه وقع في وقتين مختلفين بنفس الوصف المذكور خصوصًا وأن نبيهم واحد وزمن بعثته لهم زمن واحد والقريتان متجاورتان لا يفصل بينهما طويل مسافة. والله أعلم.

خبر سبأ:

سبأ كما روي عن فروة بن مسيك القطيعي قال: قال رجل يا رسول الله أخبرني عن سبأ ما هو؟ أرض أو امرأة؟ قال: ليس بأرض ولا امرأة ولكنه رجل ولد عشرة من الولد فتيامن ستة وتشاءم منهم أربعة فأما الذين تشاءموا: فلخم وجذام وعاملة وغسان وأما الذين تيامنوا: فكندة والأشعريون والأزد ومذحج وحمير وأنمار فقال رجل يا رسول الله وما أنمار؟ فقال: "الذين منهم خثعم وبجيلة".[101] ونسب سبأ كما قال علماء النسب منهم محمد بن اسحق واسم سبأ عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

وإنما سمي سبأ لأنه أول من سبا في العرب وكان يقال له الرائش لأنه أول من غنم في الغزو فأعطي قومه فسمي بالرائش.[102]

([100]) الدر المنثور الجزء5 ص91 - 92.

([101]) أخرجه الترمذي في كتاب التفسير361/5. والسيوط في الدر المنثور231/5. مسند أحمدج1 ص532.

([102]) إسماعيل بن كثير - تفسير القرآن العظيم: ج3 ص532.

يقول القرطبي: كان لأهل سبأ جنان ونعيم حتى إذا طغوا دمرت وكانوا قد أقاموا سدًا عظيمًا يحميهم من السيول ويجمع الماء حتى إذا طغوا وكفروا أرسل عليهم السيل العرم فغرقت أرضهم ودقت الرمل بيوتهم ومزقوا كل ممزق حتى صار تمزيقهم مثلًا للعرب يقولون: "تفرقوا أيدي سبأ" لأنه لما غرق مكانهم وذهبت جناتهم تبددوا في البلاد فأخذت كل طائفة منهم طريقًا.[103]

ويقول الطبري: عن بشر قال حدثنا يزيد قال سعيد عن قتادة قال: لما ترك القوم أمر الله بعث الله عليهم جرذًا يسمي الخلد فنقبه من أسلفه حتى أغرق به جناتهم وضرب به أرضهم عقوبة بأعمالهم.[104]

قال تعالى: { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (15) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (16) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ} [سبأ: 15 - 17].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه قال: العرم اسم الوادي، وقيل العرم اسم الجرذ الذي خرب السد، وقيل هو صفة السيل مأخوذة من العرامة، وقيل اسم المطر الكثير.[105]

فقد أعرض أهل سبأ عن تصديق الرسل الذين بعثوا إليهم. قال السدي ووهب: بعث الله إلى أهل سبأ ثلاثة عشر نبيًا فكذبوهم فاستحقوا بذلك العذاب الذي حل بهم.[106]

خبر فرعون والبحر:

البحر المقصود هو بحر القلزم بضم القاف وسكون اللام والزاي مضمومة والقلزمة ابتلاع الشيء يقال: تقلزمه إذا ابتلعه.

وسمي بحر القلزم قلزما لالتهامه من يركبه وهو المكان الذي غرق فيه فرعون موسي واله. وبين هذا الموضع وفسطاط مصر سبعة أيام.[107]

([103]) محمد بن أحمد القرطبي - الجامع لأحكام القرآن: ج6 ص95.

([104]) تفسير الطبري جزء22 ص78.

([105]) ابن حجر. فتح الباري ج8 ص527.

([106]) محمد بن أحمد القرطبي - الجامع لأحكام القرآن: ج14 ص285

ويطلق على المنطقة اليوم خليج السويس بين رأس غارب ومدينة السويس إلى الشرق من القاهرة في المنطقة التي يطلق عليها اليوم محافظة الشرقية في مصر.

وقيل: كنية البحر "أبو خالد" وجاء في التفسير أن موسى عليه السلام هو الذي كناه "أبو خالد" لما ضربه بالعصا فانفلق بإذن الله تعالى.[108]

وفرعون موسى من ولد عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام وقيل من العرب واسمه الوليد بن مصعب وكان أبرش.[109] قصيرًا يطأ في لحيته وملك مصر خمسمائة عام.[110] وقيل إن اسمه منفتاح وهو الذي تولي مصر بعد رمسيس والذي يعتبره المؤرخون فرعون الخروج.[111] وقيل في نسبه غير ذلك. وموسى عليه السلام قد طلب من فرعون هذا أمرين:

الأمر الأول: أن يوحد الله تعالى.

الأمر الثاني: أن يسمح لبني إسرائيل بالخروج من مصر.

قال تعالى: { اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (43) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (44) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (45) قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى (46) فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى} [طه: 43 - 47].

ولكن فرعون رغم الآيات التي أظهرها الله تعالى على يد موسى تصديقًا لدعواه لم يسلم بكلا الأمرين وازداد إمعانًا في استكباره وتنكيله بالإسرائيليين.

قال تعالى: { وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} [الأعراف: 127].

عند ذلك أمر الله تعالى موسى بالخروج ببني إسرائيل ليلًا من مصر وتم خروجهم بمعجزة إنشقاق البحر الذي غرق فيه فرعون وجنوده.

([107]) ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان: ج4 ص387.

([108]) ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان: ج1 ص80.

([109]) أبرش: اختلف لونه فيه نقط حمراء وسوداء أو غيراء. أو نحو ذلك المعجم الوسيط ج1 ص49.

([110]) ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان: ج5 ص140.

([111]) د. حمدي عبد العال الملة والنحلة ص26 دار القلم. الكويت.

قال تعالى: { وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ (39) فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ} [القصص: 39 – 40].

ثم ماذا بعد الغرق؟ ولنسمع فرعون هذا وهو يصارع الموت في لجة البحر. اقرأ معي من خلال القرآن العظيم هذا الحوار الذي تقشعر له الأبدان الطيبة، وتخضع له الأنفس الكبيرة، والذي تتمثل فيه قوة الله سبحانه وجبروته على الظلمة والطغاة إذا حان وقت رجوعهم إلى الله تعالى، كيف يكون حالهم؟

قال تعالى: { وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [يونس: 90].

فيرد عليه الله تعالى: { آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} [يونس: 91].

الآن يا فرعون ويا أمثال فرعون، وقد مرت من عمرك الدقائق ورحلت الساعات وخمدت الأنفاس، وسكنت الجوارح؟ { كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا} [المؤمنون: 99 – 100].

ثم تكون المعجزة الخالدة { فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ} [يونس: 92].

وما زالت جثة فرعون هذا آية ماثلة للعيان، تنتقل بين متاحف الدنيا والناس ينظرون إليها هنا، وهناك، ينظرون إليها ولا يعتبرون. {فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُور} [الحج: 46].

خبر واد محسر وأصحاب الفيل:

بطن "محسر" بكسر السين وتشديدها موضوع بمني [112]

ومحسر بضم الميم وفتح الحاء المهملة وتشديد السين المهملة[113] أحسر أي أعيي وكل، كما جاء قوله تعالى: { ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ} [الملك: 4].

[112] محمد بن أبي بكر الرازي: مختار الصحاح. مرجع سبق ذكره ص136.

قال النووي: سمي بذلك لأن فيل أصحاب الفيل أحسر فيه وكل وتعب فحسر أصحابه بفعله وأدمعتهم الحسرات[114].

قال الأزرقي:

ما بين جمرة العقبة ووادي محسر سبعة آلاف ذراع ومائتا ذراع.[115]

وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه أسرع في بطن محسر.

أخبرنا عبد الله بن محمد قال حدثنا أحمد بن جعفر بن محمد أنه قال حدثنا عبد الله بن أحمد بن حنبل قال: حدثنا أبي قال: حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن أبي الزبير عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم أوضع.[116] في وادي محسر.[117]

فمن المندوب والمستحب ومن سنن السير فيه أن يسرع الماشي فيه ويحرك الراكب دابته ويكون ذلك قدر رمية حجر.[118] سواء كان حاجًا أم مارًا لأن أصحاب الفيل هلكوا هنالك.

ولكن لماذا جاء أصحاب الفيل لهدم الكعبة؟ وما سبب وجود الأحباش في اليمن مع أنها أرض عربية؟ فأن أخر ملوك حمير في اليمن كان اسمه ذونواس وكان مشركًا وقد قتل أصحاب الأخدود وكانوا قرابة عشرين ألفا من النصارى فلم يفلت منهم إلا دوس ذو ثعلبان الذي توجه إلى الشام فاستغاث بقيصر ملكها يومئذ، وكان نصرانيًا، فكتب إلى النجاشي ملك الحبشة لكونه أقرب إليهم فبعث معه أميرين هما أرناط وأبرهة بن الصباح.

أبويكسوم في جيش كثيف دخل اليمن فجاسوا خلال الديار، واستلبوا الملك من حمير وهرب ذونواس فمات غريقًا في البحر. ثم إن أبرهة بني كنيسة هائلة في صنعاء أسمتها العرب "القليس" بسبب شدة أرتفاعها، وعزم أبرهة الأشرم على أن يصرف حج العرب إليها كما

([113]) يحي بن شرف بن مري النووي. شرح النووي على صحيح مسلم جزء8 ص190 طبعة 2 دار إحياء التراث بيروت1392.

([114]) انظر شرح الزرقاني جزء3 ص448 وعون المعبود جزء5 ص266. صحيح مسلم بشرح النووي ج8 ص190.

([115]) تهذيب الأسماء النووي جزء3 ص333.دار الفكر بيروت الطبعة الأولى1996.

([116]) أوضع: أسرع. وضع البعير وغيره أسرع في سيره. مختار الصحاح. ص727. قال تعالى: {خلالكم يبغونكم الفتنة} وقال الراجز يا ليتني فيها أخب فيها وأضع.

([117]) يوسف بن عبد الله بن عبد البر التمهيد جزء 24 ص422 وزارة الأوقاف المغرب1387هـ.

([118]) ابن حجر تلخيص الحبير جزء 2 ص 259 المدينة المنورة 1964.

يحجون إلى الكعبة بمكة، نادي بذلك في مملكته، فكرهت العرب العدنانية والقحطانية ذلك وغضبت قريش لذلك غضبًا شديدًا حتى قصدها بعضهم وتوصل إلى أن دخلها ليلًا فأحدث فيها، وكر راجعًا، فلما رأى السدنة ذلك الحدث رفعوا الأمر إلى ملكهم أبرهة وقالوا له إنما فعل ذلك بعض قريش غضبًا لبيتهم الذي ضاهيت هذا به، فأقسم أبرهة ليسيرن إلى بيت مكه وليخربنه حجرًا حجرًا، وسار في جيش كثيف عرمرم لئلا يصده أحد عنه واصطحب معه فيلًا عظيمًا كبير الجثة لم ير مثله يقال له محمود، وكان قد بعثه له النجاشي لذلك. يقال كان معه أيضًا ثمانية فيلة وقيل اثنا عشر فيلًا غيره، والله أعلم. وقد حاولت العرب رد أبرهة عن البيت فاعترضه ذو نفر من أشراف أهل اليمن وكذلك أعترضه نفيل بن حبيب لكنهما لم يغنيا شيئًا بل هزمهما وساقهما معه أسيرين يدلانه على الطريق حتى وصل إلى مكة. وعندما وصلوا إلى مكة أرسل الله عليهم طيرًا من البحر أمثال الخطاطيف مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها حجرًا في منقار، وحجرين في رجليه أمثال الحمص والعدس لا يصيب منهم أحد إلا هلك، وليست كلها أصابت فخرجوا هاربين يتدرون الطريق ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق ونفيل على رأس الجبل مع قريش وعرب الحجاز ينظرون ما أنزل الله بأصحاب الفيل من النقمة وكان مهلكهم في وادي محسر الذي وصفناه آنفًا قال عطاء بن يسار وغيره: ليس كلهم أصابهم العذاب في الساعة الراهنة بل منهم من هلك سريعًا ومنهم من جعل يتساقط عضوًا عضوًا وهم هاربون، وكان أبرهة ممن تساقط عضوًا عضوًا حتى مات ببلاد خثعم، والله أعلم.[119]

قال تعالى: { أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (1) أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (2) وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ[120] (3) تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ[121] (4) فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ[122] مَأْكُولٍ (5)} [سورة الفيل].

([119]) ابن كثير تفسير القرآن العظيم الجزء الرابع ص 552-554 بتصرف يسير انظر السيرة النبوية لابن هشام ج1-ط- دار إحياء التراث العربي.

([120]) أبابيل: أي فرقاء - مختار الصحاح ص2.

([121]) سجيل: هي حجارة من طين طبخت بنا جهنم مكتوب فيه أسماء القوم. مختار الصحاح ص287.

([122]) العصف: الورق قال تعالى: {والحب ذو العصف والريحان} [الرحمن: 12] وقال الشاعر:

الداعي إلى توظيف الآثار في القرآن الكريم والسنة

القرآن الكريم كتاب هداية:

إن القرآن الكريم كتاب هداية وإرشاد يستخدم الوسائل المختلفة لبيان غايته ولتحقيق أهدافه من أجل تصحيح عقائد الناس وتوجيهها الوجهة الصحيحة التي يريدها من توحيد الله تعالى والإقرار بالألوهية والربوبية له وحده، ومن هذه الوسائل حال الأمم السابقة وما لها كيف بدأوا وكيف كانت نهايتهم؟ وأين؟ وما أسباب وقوعهم في عذاب الله تعالى؟ وهل تركوا وراءهم ما يدل عليهم عبرة وموعظة لغيرهم؟ لذلك يتضح من توظيف القرآن الكريم للآثار ما يأتي:

أولًا: توظيف القرآن الآثار في القصص القرآني كعنصر هام من عناصر القصة، وهو عنصر المكان، ليبين المكان الذي جرت فيه هذه الأحداث، ويجليه للقارئين. انظر مثلًا قوله تعالى وهو يتحدث عن عاد: {وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ} [الأحقاف: 21]. فحدد مكانهم وعين واديهم الذي سكنوا فيه. وإلى قوله تعالى وهو يتحدث عن مدين: { وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ} [الأعراف: 85]. فدل على أن شعيبًا بعث إلى أهل. والقرآن يذكر ذلك لتكتمل الصورة التي تتحدث القصة عنها، ولتكون متحركة أمام الناس بأشخاصها وبمكانها وبزمانها.

ثانيًا: حث المسلمين ودعوتهم إلى الاعتبار والتفكير بأخبار السابقين وما حصل لهم ليزدادوا إيمانًا مع أيمانهم، ودعوة الكفار كذلك إلى التوقف والنظر لما حل بغيريهم ليرتدعوا ويعودوا إلى رشدهم. قال تعالى: { أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الروم: 9].

ثالثًا: بيان حكم شرعي كما جاء في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك بخصوص الحجر، مبينًا حكم الدخول على الذين حل بهم العذاب.

رابعًا: بيان نعم وآلاء الله تعالى على الناس وما وصلوا إليه من القوة بفضل الله تعالى.

أقرأ قوله تعالى: { إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ (7) الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ}[الفجر: 7 – 8].

كذلك قوم ألفا حين أضحوا كعصف في سدرهم رميم بقل الزرع عن الفراء وقال الحسن في قوله تعالى{فجعلهم كعصف مأكول}[الفيل: 5] أي كزرع قد أكل حبه وبقي تبنه. مختار الصحاح مرجع سابق437/436.

وقوله تعالى: { لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ} [سبأ: 15].

خامسًا: إن قدرة الناس وقوتهم المادية التي يمكن أن يصلوا إليها لا تنفعهم إذا هم أعرضوا عن أمر ربهم، وأنه قادر عليهم دائمًا، وقادر على حرمانهم من النعم التي أنعم بها عليهم كذلك. قال تعالى: { فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ} [الحج: 45].

زيارة الآثار من منظور شرعي:

موقف علماء الإسلام من زيارة الآثار حين استدلوا بأحاديث الموضوع "الدخول على أهل العذاب" لم يستدلوا بها على مجرد الزيارة أو الذهاب لمشاهدة هذه الأماكن خصوصًا أراضي العذاب منها. بل استفادوا منها في مواضع أخرى وفي أبواب مختلفة مثل الصلاة في أرض العذاب أو نبش قبور المشركين أو في الانتفاع بماء هذه البلاد والأقوام. فلذلك سنجد أن آراء العلماء في هذا الموضوع غالبا ما تكون مقرونة بجواز الصلاة في أرض العذاب أو في باب جواز نبش قبور المشركين أو في جواز الصلاة على المقابر بشكل عام فنجد آرائهم مبثوثة هنا وهناك بحسب موضوعهم الذي يريدون وليست منفردة بذاتها في باب خاص بها.

والسبب في ذلك كما أرى يعود إلى عدم اهتمام الناس في تلك الأعصار بهذه الأماكن لذاتها وعدم رغبتهم في الذهاب إليها قاصدين المتعة والاستجمام من الوقوف على أشكالها ومناظرها باستثناء نفر قليل من الرحالة أو المارين عليها مرور الحاجة في سفر أو طريق.

لذلك نعرض لأراء العلماء المختلفة من زيارة الآثار: هذا ابن حبان يعنون لحديث ابن عمر الذي مر ذكره بقوله: ذكر ما يجب على المرء من ترك الدخول على أصحاب الحجر إلا أن يكون باكيًا، وترك الدخول عندها بمعنى الزجر.[123] أما البيهقي بعد إيراده الحديث في باب من كره الصلاة في موضع الخسف والعذاب. قال: فأحب الخروج من تلك المساكن وترك المقام بها إلا باكيًا. فدخل في ذلك المقام والصلاة وغيرها.[124] أما صاحب الترغيب والترهيب فقد عنون للحديث: الترهيب من المرور بقبور الظالمين وديارهم ومصارعهم مع

([123]) محمد بن حبان بن أحمد أبو حاتم البستي، صحيح ابن حبان ج14 ص79 ط2 مؤسسة الرسالة بيروت 1993م.

([124]) أحمد بن حسين علي بن موس البيهقي، السنن الكبرى ج2 ص415 مكتبة دار البيان مكة 1994م.

الغفلة عما أصابهم[125]. وكذلك النووي يقول تعليقًا على هذا الحديث: الحث على المراقبة عند المرور بديار ومواضع العذاب في باب النهي عن الدخول على أهل الحجر إلا من يدخل باكيًا، فينبغي للمار في مثل هذه المواضع المراقبة الخوف والبكاء والاعتبار بهم ومن مصارعهم وأن يستعيذ بالله من ذلك[126]. صاحب سبل السلام يقول: محل غضب الله لا ينبغي الأناة فيه ولا البقاء به.[127] وأكثر من ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: المكث في مواقع العذاب والدخول إليها لغير حاجة منهي عنه ويستثني من نفس الدخول إذا كان باكيًا والنهي عنده نهي تحريم[128]. أما ابن حجر فيقول تعليقًا على هذا الحديث: ترك النزول وليس المراد اقتصار النهي على إبتداء الدخول بل دائمًا عند كل جزء من الدخول وأما الاستقرار فالكيفية المذكورة مطلوبة فيه بالأولوية، أي البكاء. وفي الحديث زجر عن السكن في أرض المعذبين والإسراع عند المرور بها.[129]

ونقل ابن حجر عن ابن بطال قوله بإباحة الصلاة هناك لأن الصلاة موضع بكاء وتضرع كأنه يشير إلى عدم مطابقة الحديث لأثر على كرم الله وجه.

قال ابن حجر: والحديث مطابق له من جهة أن كلًا منهما قيد ترك النزول.[130]

أما القرطبي فيقول في تفسير الآية { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام: 11] هذا السفر مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار بآثار من خلا من الأمم وأهل الديار وعاقبتهم آخر الأمر. وينقل العلماء كراهة الدخول إلى تلك المواضع وعليه حمل بعض العلماء دخول مقابر الكفار. فإن دخل الإنسان في تلك المواضع والمقابر فعلى الصفة التي أرشد إليها النبي صلى الله عليه وسلم من الخوف والإسراع والاعتبار[131].

([125]) عبد العظيم بن عبد القوي المنذري، الترغيب والترهيب ج4 ص191 ط1 دار الكتب العلمية بيروت1417هـ.

([126]) شرح النووي على صحيح مسلم ج18 ص110.

([127]) محمد بن إسماعيل الصنعاني سبل السلام ج2 ص202 دار الأرقم بيروت لبنان.

([128]) ابن تيمية شرح العمدة ج45 ص507 ط1 مكتبة العبيكان الرياض 1413هـ.

([129]) ابن حجر فتح الباري ج1 ص631.

([130]) ابن حجر فتح الباري ج1 ص632 دار البيان للتراث.

([131]) بن حجر فتح الباري ج1 ص632 دار البيان للتراث.

أدلة العلماء فيما ذهبوا إليه:

القول بأحكام الشرع لا يكون من فراغ إذ لابد من دليل شرعي يشار إليه قبل النطق بالحل أو بالحرمة أو الكراهة وهذا هو سبيل أهل العلم في بيان شرع الله تعالى. وكذلك هذا الموضوع له أدلته من الكتاب وأقوال سلف الأمة وقد دارت أقوال العلماء في هذا الموضوع حول الأدلة الآتية:

أولًا: من الذكر الحكيم قوله تعالى: { قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام: 11] استدل بها القرطبي في تفسيره إياها على أن السفر إلى آثار الأمم السابقة مندوب إليه إذا كان على سبيل الاعتبار.[132] وقوله تعالى: { وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} [إبراهيم: 45] استدل بها ابن حجر على النهي عن الدخول إليها وترك النزول بها إلا باكيًا.[133] ونقل القرطبي عن بعض العلماء استدلالهم بقوله تعالى: { وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} [الحجر: 76]. على كراهة الدخول في مواقع العذاب[134].

ثانيًا: من الحديث النبوي: وهو الدليل الذي دار عليه رأي كل الفقهاء وعامة العلماء، فقال البخاري: حدثنا عبد الله بن محمد الجعفي، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر رضي الله عنهما: لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال: لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم أن يصيبكم ما أصابهم، إلا أن تكونوا باكين ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى أجاز الوادي[135]. وأخرج البيهقي قال: أنبأنا أو علي الروز بآدي حدثنا أبو بكر حدثنا أبو داود حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يحي بن أزهر وابن لهيعة عن الحجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن علي رضي الله عنه: أن عليًا مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذن بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال: إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلي في المقبرة ونهاني أن أصلي

([132]) ابن حجر العسقلاني، فتح الباري ج10 ص46.

([133]) ابن حجر فتح الباري ج1 ص632 دار البيان للتراث.

([134]) محمد بن أحمد القرطبي – الجامع لأحكام القرآن: ج10 ص46.

([135]) ابن حجر فتح الباري ج1 ص632 دار البيان للتراث.

بأرض بابل فإنها ملعونة.[136] وقد استدل بهذا الحديث ابن تيمية وغيره فقال: وبذلك عمل الخلفاء الراشدون والصحابة.[137] ونقل ابن حجر هذا الأثر عن ابن أبي شيبة عن طريق عبد الله بن أبي المحل قال: كنا مع علي فمررنا على الخسف الذي ببابل فلم يصل حتى أجازه. ونقل عن طريق عن علي قوله: ما كنت لأصلي بأرض خسف الله بها ثلاث مرات.[138]

الخاتمة:

أولًا: قسم القرآن الكريم الآثار إلى قسمين مختلفين "منها قائم وحصيد" ليتناسب مع السياق القرآني وتقصية للأخبار تلك وليوضح أن من الآثار ما هو قائم ومرئي للعيان ومنها مندثر. محققًا السبق في هذا التقسيم.

ثانيًا: إن ذكر الآثار وأخبار الأمم السابقة تكررت في أصول الشريعة في مواضع شتى. وظفت لتحقيق غايات جليلة كتثبيت عقيدة التوحيد في النفوس مما يدل على أهيمتها في توجيه الناس وإرشادهم عبر العصور والأزمان بوصفها كوسيلة هامة في هذا البحث.

ثالثًا: الإشارة القرآنية الخاصة بالنوع الدارس والمندثر من الآثار يفهم منها إطلاق الشارع ليد البحث والتنقيب عن هذه الآثار ومعرفة أحوال ساكنيها بشرط ألا تكون أرض عذاب.

رابعًا: ذكر الآثار في الحديث الشريف اقتصر على بيان الحكم الشرعي لدخولها.

خامسًا: أخف ما ذكر في حكم الدخول على المعذبين الكراهة وقد يصل الأمر إلى التحريم.

سادسًا: يشترط لجواز الدخول إلى ديار المعذبين نية الإعتبار مع البكاء.

سابعًا: لا مانع شرعيًا من زيارة الآثار التي لم يقع فيها عذاب من الله تعالى بل يندب إلى ذلك لأجل الاعتبار.

ثامنًا: لم يتعرض العلماء إلى زيارة الآثار بشكل مباشر بل جاء تعرضهم لها بين ثنايا مسائل أخرى بسبب عدم اهتمام الناس بالآثار إجمالًا، فضلًا عن التوجه إليها وزيارتها.

([136]) سنن البيهقي الكبرى ج2 ص451 حديث رقم4158.

([137]) ابن تيمية، شرح العمدة ج4 ص510. مكتبة العبيكان – الرياض1413هـ.

([138]) ابن حجر فتح الباري ج1 ص631 دار البيان للتراث.

قائمة المصادر والمراجع

(1) إبراهيم مصطفي وآخرون. المعجم الوسيط. المكتبة العلمية. طهران.

(2) أحمد بن حسين بن علي بن موسى البيهقي السنن الكبرى. مكتبة دار البيان. مكة1994.

(3) أحمد بن عبد الحليم بن تيمية. شرح العمدة الطبعة الأولى. مكتبة العبيكان. الرياض.

(4) أحمد بن عبد الله الحكم النيسابوري. المستدرك على الصحيحين. دار الكتب العلمية الطبعة الأولى. بيروت. لبنان.

(5) أحمد بن علي بن حجر العقسلاني. فتح الباري بشرح صحيح البخاري. دار الريان للتراث. الطبعة الثانية 1409هـ.

(6) ابن حجر العقسلاني. تلخيص الحبير. المدينة المنورة1964.

(7) ابن حجر العقسلاني. تهذيب التهذيب. الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة بيروت. لبنان.

(8) محمد بن فارس بن زكريا الرازي. معجم مقاييس اللغة. الطبعة الأولى. دار الكتب العلمية بيروت لبنان1999.

(9) أحمد بن محمد بن حنبل. المسند. مؤسسة قرطبة. مصر.

(10) ابن منظور لسان العرب. دار إحياء التراث. مؤسسة التاريخ العربي الطبعة الثالثة. 1993 بيروت لبنان.

(11) إسماعيل بن كثير: تفسير القرآن العظيم. مؤسسة الكتب الثقافية. الطبعة الأولى1993 بيروت لبنان.

(12) إسماعيل بن كثير. البداية والنهاية. مكتبة المعارف. بيروت لبنان.

(13) الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني. المفردات في غريب القرآن. دار المعارف الطبعة الأولى1998بيروت لبنان.

(14) حمدي عبد العال. الملة والنحلة. دار القلم الكويت.

(15) سيد سابق. فقه السنة. دار الكتاب العربي. بيروت لبنان.

(16) سيد قطب. في ظلال القرآن. الطبعة الخامسة. 1977دار الشروق بيروت لبنان.

(17) محمد بن أبي بكر الرازي. مختار الصحاح – الطبعة السابعة دار المعارف.

(18) الطبرسي. أبو علي الفضل. مجمع البيان في تفسير القرآن – الطبعة الأولى1406هـ دار المعرفة.
(19) علي بن محمد الماوردي. النكت والعيون الطبعة الأولى1412هـ دار الكتب العلمية.
(20) حسنين محمد مخلوف. تفسير وبيان كلمات القرآن الكريم مذيلًا بأسباب النزول للواحدي. الطبعة الخامسة 1418هـ.
(21) عبد العظيم بن عبد القوي المنذري. الترغيب والترهيب. دار الكتب العلمية. الطبعة الأولى1417بيروت لبنان.
(22) عبد الرحمن بن الكمال جلال الدين السيوطي. الدر المنثور. دار الفكر. بيروت لبنان.
(23) فضل حسن عباس. القصص القرآني. دار الفرقان. الطبعة الثانية. 1992م عمان الأردن.
(24) محمد بن أحمد القرطبي. تفسير الجامع لأحكام القرآن. دار الشعب. الطبعة الثانية1372 القاهرة.
(25) محمد بن جرير الطبري. تاريخ الطبري. الناشر دار التراث. بيروت. الطبعة الثانية1387هـ.
(26) محمد بن جرير الطبري. تفسير الطبري جامع البيان. دار الفكر. بيروت لبنان.
(27) محمد بن حبان أبو حاتم البستي. صحيح ابن حبان. مؤسسة الرسالة. الطبعة الثانية.
(28) محمد بن إسماعيل الصنعاني. سبل السلام. دار الأرقم. بيروت لبنان.
(29) محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد. بداية المجتهد ونهاية المقتصد. دار الكتب العلمية. الطبعة الثانية. بيروت لبنان.
(30) محمد بن علي بن محمد الشوكاني. نبل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار. دار الجيل بيروت لبنان.
(31) محمد بن يعقوب الفيروز آبادي. القاموس المحيط. دار الفكر. بيروت لبنان.
(32) محمد فؤاد عبد الباقي. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. دار المعرفة. الطبعة الأولى. بيروت لبنان.

(33) يحي بن شرف بن مري النووي. شرح النووي على صحيح مسلم. دار إحياء التراث الطبعة الثانية. بيروت لبنان.
(34) يحي بن شرف بن مري النووي. تهذيب الأسماء. دار الفكر. الطبعة الأولى. بيروت لبنان.
(35) ياقوت بن عبد الله الحموي. معجم البلدان. دار الفكر. بيروت لبنان.
(36) يوسف بن عبد الله بن عبد البر. التمهيد. وزارة عموم الأوقاف المغرب1387هـ.
(37) عفيف عبد الفتاح طباره. مع الأنبياء في القرآن الطبعة الخامسة عشر1985م دار العلم للملايين.
(38) ابن عطيه. المحرر الوجيز الطبعة الأولى1413هـ دار الكتب العلمية.
(39) عبد الرزاق: المصنف – للحافظ الكبير أبي بكر عبد الرزاق بن همام النصعاني ط2 – 1403هـ. المكتب الإسلامي.